

النخلات الثلاث  
للشاعر الروسي ميخائيل ليرمنتوف  
ترجمة د. التجاني الجزولي  
المعهد الإسلامي للترجمة، الخرطوم

مقدمة:

"النخلات الثلاث" من روائع الأدب الروسي، وهي من مقررات المدارس في روسيا منذ عهد بعيد، يحفظها الملايين عن ظهر قلب. ألّفها يوري ليرمنتوف ثاني أكبر شاعر في روسيا القيصرية ووارث شاعرها الأول الإسكندر بوشكين. وقد اقتبس صورها الأساسية من القرآن الكريم.

تعرفت روسيا القيصرية على القرآن الكريم من خلال ترجمة فيروفكين، وهي من الترجمات الضعيفة، فما كان صاحبها يعرف العربية، وقد اعتمد ترجمة فرنسية هي الأخرى ضعيفة. ومع ذلك كان لهذه الترجمة أثر كبير على الأدباء الروس. فسها هو بوشكين يعترف أنه عكف عليها وعلى "خدمة" القرآن الكريم ستة أشهر.

وليوشكين ديوان شعر قصائده كلها مستوحاة من القرآن الكريم سماه "محاكاة القرآن" .. سار ليرمنتوف على نهج بوشكين وتأثر بزياراته "للشرق" خاصة القوقاز، وكتب كثيراً عن المسلمين، وانتصر في أهم كتاباته "بطل زماننا" لمفهوم الإسلام عسن القضاء والقدر، وأفرد لذلك قصة كاملة.

والاقتباس من القرآن الكريم في "النخلات الثلاث" ظاهر جلي.

لا أشك أن الآيات: (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) "إبراهيم: 24" (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من

فوق الأرض ما لها من قران" إبراهيم: 26" قد استوقفت الشاعر المراهف الحس فجعل الصورة الأولى للنخلات قبل شكواها رمزاً للشجرة الطيبة المثل القرآني المضروب للكلمة الطيبة، ثم جعل النخلات تتناول وتمتج على القدر الإلهي فجاءت كلمات الكفر الخبيثة: "ليس عدلاً حكمتك فينا يا رباه" تستوجب القصاص والبستر فاجتشت النخلات من فوق الأرض وقطعت أشلاء.

ثم استفاد الشاعر من صورة سابقة في الترتيب القرآني مكوناً أساس لوحته الشعرية وهي: (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) "إبراهيم: 18" فأكمل بها الصورة، وهذا أقوى ما في القصيدة.

وهناك مواطن ضعف في القصيدة، وهو ضعف مستملح على كل حال، إذ له ما يبرره، فالشاعر ينتمي للبيئة الروسية، لا يستطيع أن يتحلل من تأثيرها بالكلية، كما أنه يخاطب القارئ الروسي ويهمه التأثير الذي سيحدثه فيه لا في العربي المسلم.

فالجمال في هذه القصيدة لها سنامان، كما في آسيا الوسطى، وعليه تعلق الأجراس كعادة الروس مع خيولهم. وصورة الضباب الذي يحيم على كل شيء في الليل حتى تغلبه الشمس في الصباح تميزت بها سهول روسيا لا صحراء العرب. وعادة قطع الشجر للإستدفاء عادة روسية فالبدوي لا يقطع شجرة العضاء لهذا الغرض فما بالك بشجر النخيل. والشكوى في بداية الأمر كانت لله، فصارت في الختام "للني" صلى الله عليه وسلم، ولكن الشاعر متأثر بمجتمعه المسيحي الذي يصلي فيه الناس للمسيح وأمه عليهم السلام لا الله.

والقصيدة، من الناحية الفنية، في تمام الإقناع ويحق للأدب الروسي أن يفخر بها، وقد أجهدت نفسي في ترجمتها دون تصرف مني.

### النخلات الثلاث

نمت ثلاث نخلات شامخات  
في صحراء الجزيرة العربية،  
وشق الأرض بينهما نبع بارد له خرير  
تحفه جرائد النخيل،  
فتحفظه من لفح الشمس،  
ومن رمال الصحراء الزاحفة.  
انقضت سنوات في صمت  
دون أن يدنو من الماء العذب عابر سبيل  
يكرع منه فتبتل العروق،  
ويرتاح الجسد المنهوك،  
وصارت تصفر من شدة الحر  
أوراق النخيل،  
وكاد يجف النبع ذو الخرير،  
فجأرت النخلات بالشكوى إلى ربها:  
أخلفتنا لنموت دون جدوى في الصحراء؟  
ما معنى أغصان تنمو لا تحركها سوى الرياح؟  
ما جدوى أزهار تثمر لا يأكلها إلا لهب الشمس  
وليس ثمرة من ينظر إليها فيرتاح؟  
ليس عدلاً حكمك فينا يا رباه!

ما أن أنهت كلامها الأشجار  
حتى ماجت في الأفق الأزرق البعيد  
رمال الصحراء الذهبية،  
وارتفع الغبار،  
وصارت تُسمعُ أصوات الأجراس في نشاز،  
وبدت تلمع العياب المغطاة بالفرش المصبوغة،  
وتمايلت الجمال تمشي الواحد تلو الآخر  
تحفر الرمال كأنها القوارب في البحار.  
والهوادج تتدلى أطرافها المزركشة  
من بين أسنمة الجمال،  
وتبدو من داخل الهوادج أياد سمر،  
وتلمع من هناك المآقي السود.  
وفارس ممشوق القوام  
متحاملاً على رحله  
يدفع فرسه إلى الأمام،  
فترتفع قوائمه في الهواء،  
ويدبر، ثم يقبل، ويميل  
كوحش أصابته سهام صياد.  
والثياب البيض على أكتاف الفارس  
تتماوج، وتتهدل، وتطير،  
وهو يعدو بفرسه فوق الرمال،  
يرسل رمحه في الهواء ويلحق به فيأخذه من جديد.  
ها هي القافلة تقترب من النخلات في صخب،  
ثم نصبت الخيام  
تحت أقباء الأشجار،  
وامتلأت الجرار بالماء الزلال.  
تمايلت هامات الأشجار طرباً بقدم الأضياف،  
وسقاهم فرواهم الماء المنساب.

مع حلول الظلام ارتفع صوت إعمال الفؤوس،  
وتتابعت الضربات على جذوع الأشجار،  
فهوت هامة بنات الأجيال،  
ونزع الأطفال عنها الثياب،  
وقطع الكبار أجسادها أشلاء،  
وظفقوا يوقدون منها حتى الصباح.

عندما انحسر عن المشرق الضباب،  
سار الركب في طريقه المحتوم،  
ولم يترك وراءه سوى الأثر الحزين:  
الرماد البارد على الأرض الجرداء،  
ثم حرقت الشمس بقايا الرماد من جديد  
لتندروه الرياح في الصحراء.

المكان الآن قفر موحش،  
والأوراق الخضراء لا تتاجي النبع ذا الخريز  
وهو يسأل النبيّ الظلّ فلا يجاب،  
ولا يرى غير الرمال المحرقة تنهال عليه،  
وصقر البوادي ذو الريش المنفوش  
ينهش ما افترس عنده بلا اكتراث.